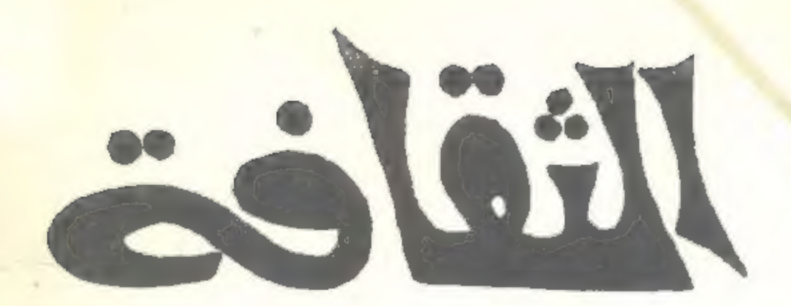


مجلة فكرية تصدر في دمشق



AL SAKAFA

ادبية فكرية جامعة تصدر شهريا

مؤسسها
ورئيس تحريرها

مدحة عكّاش

PROPRIETAIRE DIRECTEUR EN CHEF
MIDHAT AKKACHE

تأسست عام
١٩٥٨

آذار ١٩٨٧

Damas R.A.S.
B.P 3570 Tel.229984

دمشق سورية ص.ب: ٢٥٧٠ ــ هاتف ٢٢٩٩٨٤

محتويات العدد

الشعر الاندلسي

عبد الله كنون

من أكبر مميزات الشعر الاندلسي التي تطالعنا عند بحثه أولا ، انه شعر حضري لا جاهلية له وليس يشبهه في ذلك شعر قطر من الاقطار العربية • حتى العراق الذي بذ الاندلس في الحضارة نجد في شعره آثارة من هذه الجاهلية لا تخفى على الناقد البصير ؟ اما في الالفاظ فانها تكاد تلمس ، واما في المعاني فان رواسب من أفكار شعراء الجاهلية لا تفتأ تطفو حينا بعد حين على صفحة هذا الشعر الرقراق الذي قيل – ويقال حتى الان – عند ضفاف الرافدين •

ولعل مرجع ذلك في البلاد العربية الى جسارة في الطباع ، وقساوة في البقاع ، فان الاقليم في الشرق ، ولو في العراق ،غيره في المغرب ولا سيما الاندلس •

والمزاج يتكيف بتكيف الاقليم رقة وغلظة ، ولينا وشدة ، ما في ذلك شك •

وقد كان شعراء العراق كغيرهم ، يخرجون الى البادية ، فيتنقلون في القبائل لأخذ اللغة عن اربابها ، وتعلم الفصاحة من أصحابها ، كما نرى في ترجمة المتنبي والبحتري وأضرابهما ، فلزمتهم هذه البداوة وظهر أثرها في اشعرهم • وأين هي هذه البادية من شعراء الاندلس الذين ولدوا في بحبوحة الحضارة ونشأوا في غضارة الترف ، فولد الشعر معهم ونشأ حضريا مترفا •

ومن بدا منهم كابن عبدون فانما قصاراه من البداوة المظهر الذي غر الوزير أبا بكر بن زهر (١) ، واما المخبر ، فانه الذي انجلى عن قصيدة :

" الدهر يفجع بعد العين بالاثر "

واما هؤلاء الشعراء الذين طرأوا مع الفتح من مثل ابي الخطار الكلابي والصميل بن حاتم فانهم وان كانوا يذهبون في شعرهم مذهب أهل الجاهلية ، فاننا لا نعدهم بحال من شعراء الاندلس ، لانهم لم ينشأوا فيها ولم يشتهروا بشعر كثير فيؤثروا فيمن أتى بعدهم ، فبقي الشعر الاندلسي مصونا من عنجهية البدو ، لا جاهلية له مطلقا •

ولقد استمر الحال بعد الفتح على ما يقتضيه طور التمهيد والتنظيم من الانصراف عن شؤون الادب والشعر الى ان قدم عبد الرحمن الداخل ، إي نحوا من ٤٦ سنة ، وحينئذ انفسح المجال امام شعراء الاندلس للتحليق في جو " الصقر " (٢) الذي القى الى النخلة بهذه النفثة السحرية :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى
وطول اكتئابي عن بني وعن اهلي

ومن ذلك اليوم تحدد موقع الشعر في الجزيرة ، فمن الوجهة الاجتماعية كان الامير المنشيء

للدولة المؤثل لمجد الاسلام شاعرا يعبر عن عواطفه بشعر بليغ ونظم رقيق ، فلم يستنكف من آتى بعده من الشعراء أن ينسجوا على منواله في تعاطي الشعر وحب الادب حتى كان كل أمراء بني أمية وخلفائهم تقريبا شعراء ، وكذا ملوك الطوائف الذين خلفوهم من بعد ، والناس على دين ملوكهم كما يقال، فقامت للشعر دولة ببلاد الاندلس لم يكن له مثلها بالبلاد الاخرى ، وبينما كان " الشعر بالعلماء يزري " في المشرق كما آتى في بيت للشافعي رحمه الله (٣) كان العلماء في الاندلس يتسابقون لنظم الشعر ويتباهون بمعرفته ، ولا يعدون العالم كاملا الااذا شارك في علوم الادب بأوفر نصيب (٤) .

ولهذه المكانة التي كانت له في النفوس كثرت رغبة الناس فيه ، وصار طلبة الخاصة والعامة حتى قيل في مدينة شلب ان قليلا من أهلها من لا يقول الشعر، ولو مررت بالفلاح في فدانه وسألته عن العشر قرض في الحال ما اقترحته عليه (٥) .

ومن الوجهة الادبية ، فان الشعر في الاندلس لم يكن رجعا لصدى الشعراء القدماء ولا طبعا على النزواسم (الكليشيات) ، المعهودة ، فان عبد الرحمن لما كان فريدا غريبا في بلاد غير بلاده ورأى النخلة في موطن غير موطنها أشبه شيء به ، هاجت شاعريته ونطق بذلك الشعر الذي عبر عن ذات نفسه ، ولم يكن صنعة ولا زورا من القول ، فلفت نظر الشعراء بعده الى هذه الطبيعة البديعة ، او قل ان هذه الطبيعة التي أنطقته ، لفتت نظرهم الى جمالها الفتان وسحرها العجيب فقالوا فيها ماشاؤا وتفننوا ما أرادوا .

ومن ثم كان أكثر شعرهم في الوصف والتصوير ولا سيما لمظاهر الطبيعة من الرياض والازهار ، والجبال والانهار ، والسحاب والامطار ، حتى عد ابن خفاجة أكثر وصاف الطبيعة وأحسنهم قولا فيها ، وألف ابو الوليد الحميري من أدبائهم كتابا كاملا من شعرهم في نعت الرياحين والزهور سماه " البديع في وصف الربيع " وهو ممن عاش في اول القرن الرابع ، فما بالك بما قيل بعده في هذا الصدد ؟

ولعل اول شاعر اندلسي يمثل بروحه الخفيفة وأدبه المرح هذا المحيط الحضري الرائق الذي نشأ فيه الشعر الاندلسي ، وهو يحيى الغزال المتوفى حوالي سنة ٢٥٠ ، وشعره مرآة صادقة لنفسه الطروب ، وقد كان ذهب سفيرا الى بلاد الروم فأعجب به الملك والملكة أيما اعجاب لفرط أدبه وجماله ، وجرت له مع الملكة محاورات جميلة ، وقال في ذلك أشعارا لطيفة .

ثم يأتي بعده اديب الاندلس أحمد بن عبد ربه مؤلف كتاب " العقد " المعروف ، وكان الجو الادبي بالاندلس يزداد صفاء كل يوم فلذلك جاء شعره ينفح بعطر الحضارة ويكاد يشرب من رقته وعذوبته ، وهو أن ألف لقومه ادب المشارقة ، فقد أعطى لهؤلاء نماذج من أدب الاندلس في مقطوعاته البديعة التي ضمنها كتابه الفريد ، ولئن قال الصاحب ابن عباد في العقد لما وقف عليه ، " هذه بضاعتنا ردت الينا " فلقد قال المتنبي في صاحب العقد، "ايه يا ابن عبد ربه ، لقد تأتيك العراق حبوا " وذلك عندما سمع أبياته العديمة النظير :

يا لؤلؤا يسبي العقول أنيقا
ورشا يتقطيع القلوب رفيقا
ماان رأيت ولا سمعت بمثله
درا يعود من الحياة عقيقا

وإذا نظرت الى محاسن وجهه
ألفيت وجها في سناه غريقا
يامن تقطع خصره من رقة
مابال قلبك لايكون رقيقا (٦)

وقد كان هذان الاديبان هما طرفا الادب في القرن الثالث (٧)، وذكرهما يغني عن ذكر غيرهما

فلما دخل القرن الرابع دخلت الاندلس معه في عصرها الذهبي حيث بلغ التمدن فيها أوجه تحت حكم الخليفة عبد الرحمن الناصر، وابنه الحكم والمنصور ابن ابي عامر فانتشرت العلوم والفنون، وارتقى المستوى الفكري غاية لم يصلها من قبل .

وفي هذا العصر كان التعليم قد عم سائر الطبقات، فقلما تجد انسانا لا يعرف القراءة والكتابة، والرجال والنساء في ذلك سواء (٨)، واذا عم التعليم بهذه الصفة تنبهت المشاعر وتهذبت الاذواق ونشطت الحركة الادبية من عقالها وتقدمت أشواطا بعيدة في ميدان الابتكار والتجديد، لأن الامة التي نضجت أفكارها لا تقبل من الانتاج الاماكان حريا بالقبول، وكان من أثر هذا النضج الادبي اختراع الموشحات التي صارت زينة الشعر العربي، وهي هدية المغرب الى المشرق التي تقبلها بكامل السرور وسنتكلم عنها فيما بعد .

وقد أظل هذا العصر كبار شعراء الاندلس من مثل ابي القاسم ابن هانيء وابن دراج القسطلي والرمادي، وناهيك بهؤلاء الثلاثة،

فأما ابن هانيء فهو الذي يقال له متنبيء المغرب، عاش عيشة الاستهتار حتى تألب عليه اهل بلدة اشبيلية وخرج منها ولحق بالعدوة فلقي الخليفة المعز الفاطمي ومدحه فحظي عنده وكان يريد استصحابه الى مصر، فمات مختضرا في عنفوان الشباب نتيجة اسرافه في السكر والمجون .

ولما بلغت وفاته المعز أسف عليه وقال :- هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك . وكان يذهب في شعره مذاهب شتى من التفلسف والاستخفاف بالدين ونقد المجتمع، وله أسلوب متين وعبارة جزلة، واشتهر بحسن التشبيه واجادة الوصف، ومن جيد شعره قوله :-

أليلتنا اذا ارسلت واردا وحفا
وبتنا نرى الجوزاء في اذنها شنفا
وبات لنا ساق يقوم على الدجا
بشمعة صبح لا تقط ولا تطفا
أغن غضيض خفف اللين قده
وثقلت الصهباء أجفانه الوطفا
ولم يبق ارعاش المدام له يدا
ولم يبق اعنات التثني له عطفا

الى آخرها وهي قصيدة شهيرة

وأما ابن دراج فقال فيه القلقشندي، انه شاعر الاندلس، وقال الثعالبي هو بالصقع الاندلسي كالمتنبي بصقع الشام، وكان شاعر الدولة العامرية غير مدافع وتأخر به الزمان الى أوائل القرن الخامس، وأدرك ملوك الطوائف . وله القصيدة الرائية الرائعة التي عارض بها أبا نواس فأربى عليه، وفيها يقول :-

ألم تعلمي ان الثواء هو التوى
وان بيوت العاجزين قبور
وان خطيرات المهالك ضمن
لراكبها ان الجزاء خطير

وأما الرمادي فهو يوسف بن هرون الكندي، كان معاصرا للمتنبي، وكان كثير من شيوخ الادب في وقته يقولون :- فتح الشعر بكندة، وختم بكندة، يعنون امرأ القيس في الافتتاح لانه من كندة على ماهو معروف، والمتنبي والرمادي في الاختتام لانتسابهما معا في كندة (٩)، وكان شاعر الحكم المستنصر واختص بالحاجب المصحفي فأصابه شر النكبة التي أنزلها المنصور ابن ابي عامر

بالحاجب المذكور ، وله من قصيدة هذه الابيات البليغة :-

في أي جارحة أصون معذبي
سلمت من التعذيب والتنكيل
ان قلت في عيني فثم مدامعي
أو قلت في قلبي فثم غليلي
لكن جعلت له المسامع موضعا
وحجبتها عن عذل كل عذول

وإذا تخطينا عتبة القرن الرابع الى الخامس ، عصر ملوك الطوائف ، وجدنا أن هيبة الخلافة الاموية وعزة سلطانها وان زالا معا فان مجدها الادبي بقي متمثلا في عدة عواصم بعد أن كان محصورا في قرطبة .. فهذه اشبيلية وفيها بنو عباد أصبحت تنافس قرطبة وتجاذبها رداء الفخار في هذا المضمار ، وهذه طليطلة ، وفيها بنو ذي النون - وسرقسطة - وفيها بنو هود - وبطليموس - وفيها بنو الافطس - وغرناطة - وفيها بنو زيري - والمرية - وفيها بنو صمادح - ومالقة - وفيها بنو حمود في كل منها بلاط حافل بأهل العلم والادب وملوك يتسابقون الى الحصول على المشاهير من الكتاب والشعراء (فما كان أعظم مباهاتهم الا قول العالم الفلاني عند الملك الفلاني والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني ((١٠)) .

وإذا كانت قرطبة قد احتجنت في عهد الخلافة الاموية معاشر أهل الكفاءات الادبية ، فقد أديلت منها هذه العواصم الاخرى ، وكان ذلك في صالح العلم والادب حيث ان ازدحام البلاط القرطبي بأهل الفضل والنبل كان لا يدع مجالا للناشئين والوافدين من غير أهل الشهرة ، وحسبك بما وقع لصاعد في أيام المنصور بن أبي عامر وما قاساه من مكائد المنافسين له ، وأما الآن فان الاديب أصبح بالخيار على زمنه ، وحكمه نافذ على أميره ، لانه اذا آنس اهمالا أو تضييعا سرعان ما يتحول الى حيث العز والكرامة في بلاط آخر . وعلى كل حال فان هذا التنافس قد أبرز من الملكات ما كان خفيا ومن الشخصيات ما لولاه لكان نسيا منسيا ، وبذلك كانت الحياة الادبية في هذا العصر أزهى وأزهر منها في كل عصر آخر من عصور العرب في الاندلس ، فان عدد الشعراء الذين نبغوا في هذا العصر لا يكاد يأتي عليه الاحصاء .

وكانت الظاهرة الادبية الغالبة على أدبائه ومثقفيه بل وفقهائه وعلمائه هي الشعر .. فلا تجد عالما ولا فقيها فضلا عن أديب لا يتعاطى الشعر ولا ينظم منه شيئا ولو قليلا .. وقد طغى ذلك على ما عند بعض العلماء فكانت صفته الشعرية ابرز جوانب حياته او على الاقل تجد جانب الشعر من حياته يتكافأ مع جانب العلم ، كما نرى في أبي بكر بن باجة الذي عرف للعالم بكونه أديبا موهوبا وشاعرا بليغا كما عرف بكونه فيلسوفا وطبيبا وموسيقيا ونباتيا بارعا في الجميع ، وكم له من نظير بين العلماء وبين الفقهاء ، وقد ترجم الفتح في " القلائد " و " المطمح " لكثير من العلماء وما اعتبر فيهم الا الناحية الادبية والشعرية كأنها هي المقصودة بالذات وما زاد عليها فانما هو فضل ونافلة من القول والعمل .

وإذا ذهبنا نعرض أسماء الشعراء البارزين في هذا العصر نجد في طليعتهم أبا الوليد بن زيدون الذي يطلق عليه بحتري المغرب (١١) لرقة ديباجته وتفننه في ضروب الشعر ، وحقيقة فانه اذا كان ابن هانئ كالمتنبي يعتمد في اثارة الشعور على اظهار

البقوة باصطناع الالفاظ الجزلة وتجسيم الاحداث الخطيرة مع تحكيم العقل فيما يعرض من وقائع الحياة فان ابن زيدون كالبحتري انما يعتمد على الناحية الوجدانية فلا غموض ولا جلبة وانما هي معان جميلة وصور سحرية لهواجس النفس واحاسيس الضمير في ألفاظ رقراقة كالثمرة الناضجة تتدفق مائية وحلاوة ، فقارئه اذا كان متفتق الذهن مرهف الحس يشعر كأنه ينطق بلسانه ويعبر عن ذات نفسه ، لانه يمتزج به امتزاجا ويهيم معه في أودية الخيال الفسيحة فلا يتنبه لنفسه الا اذا انتبه الشاعر ، فرجع من رحلته وأفاق من غيبوبته

ويكفي ان يستعرض الباحث قصيدته الفريدة التي يقولها في في التشوق الى حبيبته ولادة بنت المستكفي ليرى حسن الافتتان في الوصف وجمال التصوير للعواطف ورقة الشعور في الحب ، وهي القصيدة التي لم يقل - مع طولها - في التشبيب أرق منها (٢٤) فبعد أن يفتتحها بوصف حاله في البعد وشكوى الزمان في التفريق بينه وبين حبيبته فيقول :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا ، فما ابتلت جوانحنا
شوقا اليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الاسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت
سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومورد اللهو صاف من تصافينا
واذ هصرنا غصون الانس دانية
قطوفها ، فجنينا منه ماشئنا
ليسق عهدكم عهد السرور فما
كنتم لارواحنا الا رياحينا

يقول في وصفها ونشأتها الارستقراطية وتوصله اليها بكفاءة المودة :

وبيت ملك كأن الله انشأه
مسكا وقد أنشأ الله الورى طينا
أو صاغه ورقا محضا وتوجه
من ناصع التبر ابداعا وتحسينا
اذا تأود آدته رفاهية
تدمي العقول وأدمته البرى لينا
كأنما نبتت في صحن وجنته
زهر الكواكب تعويذا وتزيينا
ماضر ان نكن أكفاءه شرفا
وفي المودة كاف من تكافينا

ويطول بنا الحال ، اذا تتبعنا ما فيها من عيون الابيات وفرائد المعاني . وقد ولد ابن زيدون في قرطبة في أعقاب الدولة الاموية ولكنه لم ينبغ ولم يشتهر الا بعد انقراضها ، وخدم ابن جهور والمعتضد بن عباد في اشبيلية ثم ولده المعتمد وزين له غزو قرطبة فملكها ، وكان يلقب بذي الوزارتين ، وبلغ في علو القدر ورفعة الشأن ما لم يبلغه أديب غيره . وتعشق ولادة بنت المستكفي وكانت أديبة شاعرة الا ان الوزير ابن عبدون كان ينافسه في حبها واستأثر بها دونه وكاد له بسبب ذلك مكائد ، وتوفي عام ٤٦٣ .

وكان ابن عبدون عند بني الافطس في بطليوس كابن زيدون عند بني عباد باشبيلية ، وهو نظيره في الادب والشعر ، وسير في رثاء مواليه لما دالت دولتهم على يد المرابطين قصيدته الخالدة التي يقول فيها :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر
فما البكاء على الاشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك منصحة
عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وان ابدى مسالمة
والبيض والسود مثل البيض والسمر

ولا هوادة بين الرأس تأخذه
يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا يغرنك من دنياك نومتها
فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي – أقال الله عثرتنا
من الليالي – وخانتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة
منا جراح وان زاغت عن النظر
تسر بالتي ، لكن كي تغربه
كالأيم ثار الى الجاني من الزهر

.. وقد ذكر فيها مصارع الملوك وعظماء الرجال الى زمنه ، ثم بكى بني الافطس بمالم يبك به شاعر دولة ، ومن أبياتها الفذة هذا البيت الذي عبر فيه عن علوية في براءة علوية :

وليتها اذا فدت عمرا بخارجة
فدت عليا بما شاءت من البشر

ويقول بعده مشككا في اغتيال الحسن بن علي بما هو أبلغ من اليقين :

وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن
أتت بمعضلة الألباب والفكر
فبعضنا قائل ما اغتاله أحد
وبعضنا ساكت لم يوت من حصر

ومنها في ذكر المتوكل وولديه العباس والفضل من بني الإفطس :

ويح السماح وويح البأس لو سلما
وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية
تعزى بماحا اليهم لا الى المطر

الى أن يقول :

على الفضائل – الا الصبر – بعدهم
سلام مرتقب للاجر منتظر

وبالجملة فانه مهما قيل في وصف هذه القصيدة وتقريظها ، فان القائلين لم يوفوها حقها ولم يكونوا مبالغين فيما قالوه منها ، وأحسن شيء فيها هو ما سلكه ابن عبدون من البكاء والاستبكاء على ضياع ملك سادته ، وابادة الدهر لهم من غير ان يعرض بخصومهم المرابطين ولا ان يتناولهم بأدنى تجريح ، وتلك لعمري براعة تشهد له بحسن التصرف في القول والتفنن في الكلام ، وكان المتوكل بالمكان الذي وصفه ابن عبدون وأعظم نبوغا في العلوم والاداب مع رسوخ قدم في الجود والشجاعة ، ولم يكن في ملوك الطوائف أفضل منه ولا من المعتمد بن عباد، فانهما كانا فرسي رهان في جميع الفضائل وخاصة العلم والادب ، وكان المعتمد أشعر والمتوكل أكتب (١٣) .

واذا ذكرنا المعتمد فلا بد أن نعطي صورة مصغرة عنه وعن أدبه ، فقد كان هذا الملك الشاعر فذا في الملوك ، فذا في الشعراء ، حتى لقد بلغ من شأنه أنه لا يمكن ان يذكر ملوك الطوائف بل ملوك الاندلس على العموم ولا يذكر المعتمد ، وانه لا يمكن ان يذكر شعراء الاندلس او الشعر العربي على العموم ولا يذكر المعتمد ، وكان مما انطوى عليه من الفضائل واحتواه من المكارم بحيث لو لم يثبت وجوده تاريخيا لقلنا انه شخصية خيالية أضفى عليها الشعر والقصص حللا وبرودا ، من الاجلال والتقديس ، ففي حالة الشدة والبأس نجده مكافحا عبقريا لاثبات ملكه وتوسيع نفوذه ، ومجاهدا متفانيا في صد موجة الاكتساح الاسباني الذي اراد ان يستصفي الاندلس في اواسط القرن الخامس . وفي حالة الرخاء والنعيم نجده ذلك المترف المرفه الذي اسرف في المتاع وأسرف في

الاستهتار حتى كان له يوم الطين الذي لم يكن لملك غيره (٤٤) وفي الشعر والادب نجده ذلك العلم المفرد بين الملوك والرؤساء ، قد انقطع لمطارحة شعراء وكتبه من وزراء وكتاب بالقصائد البليغة والابيات النادرة حتى يحسبه الإنسان أنه لا شغل له إلا قول الشعر والاجتهاد في اجادته واحسانه ، وكيف لا وقد نشأ في بيت الشعر والادب والرياسة والملك فقد كان أبوه المعتضد وجده ابو القاسم شاعرين . وكان لابيه دار مخصوصة بالشعراء وديوان تقيد فيه أسماؤهم ، وقد جعل لهم يوما يفرغ لهم فيه فلا يدخل على الملك فيه غيرهم

واجتمع بحضرة المعتمد منهم مالم يجتمع بحضرة غيره ، فكان عنده ابن زيدون وابن عمار وابن اللبانة ، وكل واحد من هؤلاء فيه كفاية ، على ان شخصية المعتمد زادت بروزا بهذه النكبة التي حاقت به وتركت الاكبادتتقطع حسرة على ما اصابه من اسى وفضيحة بعد سابق العز والسلطان، وزاد شعر المعتمد في هذه المدة اثارة للبلابل في الصدور وتحريكا للشجو والنفوس ، فكان والحق يقال أشجى شعر قيل في نكبة حقت بعظيم ، ومن شعره هذا :

لما تماسكت الدموع
وتنبه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة
فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو
ع على فمي السم النقيع
ان تستلب عني الدنا
ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه
لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا
ع ، أيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم
ألا تحصنني الــد ؟
وبرزت ليس سوى القميـ
ص عن الحشاشة دفوع
وبذلت نفسي كي تسيـ
ل إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن
بهواي ذلي والخشوع
ماسرت قط الى القتا
ل وكان من أملي الرجوع
شيم الالى أنا منهم
والاصل تتبعه الفروع

ومنه في يوم عيد وهو بالسجن :

فيما مضى كنت بالاعياد مسرورا
فساءك العيد في أغمات مسرورا
ترى بناتك في الاطمار جائعة
يغزلن للناس ما يملكن قطميرا
يطأن في الطين ، والاقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
أفطرت في العيد لا عادت اساءته
فكان فطرك في الاعياد تفطيرا
قد كان دهرك ان تأمره ممتثلا
فردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به
فانما بات بالاحلام مغرورا

وإذا ذكر المعتمد ذكر معه بالطبع ابن عمار وزيره ورفيقه ونظيره في الشعر . وهو ممن كان يذهب مذهب المتنبي ويأخذ آخذه في طلب المعالي والتهمم بالسلطان وشعره مرآة لنفسه القوية وطبعه الجموح ، على أنه كسائر شعراء الاندلس رقيق الغزل لطيف المحاولات لفنون الشعر المختلفة ، وكان قد لحق بخدمة المعتضد بن عباد واختص بولده المعتمد ولزمته ملازمة شديدة حتى صار لايرى الا معه ، ولما ولي المعتمد على مدينة شلب من قبيل والده استوزره وسلم اليه جميع اموره فغلب عليه

ابن عمار غلية شديدة وساءت السمعة عنها فغرق بينهما المعتضد ، وأبعد ابن عمار عن ايالته فلم يزل مبعدا حتى توفي المعتضد فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب ، ثم وقع بينهما ما أوجب سجنه وقتله ، وقد تشفع له ابن عمار واستعطفه ببليغ الاشعار فلم يؤثر ذلك فيه شيئا ، والملك كما يقولون ، عقيم ، لا يرعى ولي او حميم ، ومن شعره يستعطفه :

سجاياك ان عافيت أندى وأسمح
وعذرك ان عاقبت أجلى واوضح
وان كان بين الخطتين مزية
فأنت الى الادنى من الله تجنح
وماذا عسى الاعداء ان يتزيدوا
سوى ان ذنبي ثابت ومصحح
وان رجائي ان عندك غير ما
يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
أقلني لما بيني وبينك من رضى
له نحو روح الله باب مفتح
ولا تلتفت قول الوشاة وزورهم
فكل اناء بالذي فيه يرشح
وقالوا سيجزيه فلان بذنبه
فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
ألا ان بطشا للمؤيد يرتمي
ولكن حلما للمؤيد يرجح

ومن شعره قصيدته التي صارت أشرد من مثل في مدح المعتضد ، وكانت سبب تقريبه له ، وأولها :

ادر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره
لما استرد الليل منا العنبرا

ومن ابياتها بيت قال فيه المراكشي صاحب " المعجب " انه لم يسمع لمتقدم ، ولا لمتأخر مثله وهو قوله :

السيف أفصح من زياد خطبة
في الحرب ان كانت يمينك منبرا

وله حين فرق المعتضد بينه وبين المعتمد ، وهو مما تظهر عليه نزعة المتنبي :

علي ، والا ما بكاء الغمائم
وفي ، والا ما نياح الحمائم
ومني أثار الرعد صرخة طالب
لثار وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها
لغيري ولا قامت له في مآتم

واذا كان عصر ملوك الطوائف قد انتهى مع هؤلاء الشعراء ، فلقد قد امتد مع غيرهم كابن اللبانة وابن خفاجة وسواهما الى عصر المرابطين ، فأما ابن اللبانة فهو ابو بكر محمد بن عيسى اللخمي من أهل مدينة دانية . وقد اشتهر بوفائه للمعتمد ورثائه له بعد موته ، وهو شاعر من أهل الاجادة والاحسان . وفد على المعتمد في أواخر ايامه ومدحه ، ثم بعد زوال ملكه لحق بجزيرة ميورقة وبها مبشر العامري فحظي عنده ، وله فيه أمداح .. ومنها قصيدة غريبة المنزع جعلها من أولها الى آخرها ، صدر البيت غزل وعجزه مدح ، وهي :

وضحت وقد فضحت ضياء النير
فكأنما التحفت نبشر مبشر
وتبسمت عن جوهر فحسبته
ماقلدته محامدي من جوهر
وتكلمت فكأن طيب حديثها
متعت منه بطيب مسك أذفر
هزت بنغمة لفظها نفسي كما
هزت بذكراه أعالي المنبر
أذنبت واستغفرتها فجرت على
عاداته في المذنب المستغفر

وأما ابن خفاجة فهو شاعر الطبيعة المبدع في وصف آثارها ومظاهرها ، من الرياض والرياحين والماء والغمام والشمس والظل والجبال والاشجار وما الى ذلك .. لم يلتفت الى منصب ولا الى جاه ، ملأ جمال الدنيا عينيه فمال

بكليته اليه ، يغني ويشرب ويشعر ويطرب ، الى ان توفي بمسقط رأسه من جزيرة أشقر . ومن شعره يصف نهرا :

لله نهر سال في بطحاء
أشهى ورودا من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه
والزهر يكنفه ، مجر سماء
قد رق حتى ظن قرصا مفرغا
من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها
هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء اسرع جريه متحدرا
متلويا كالحية الرقطاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى
ذهب الاصيل على لجين الماء

وله في بلاد الاندلس :

يا أهل اندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار واشجار
ماجنة الخلد الا في دياركم
ولو تخيرت هذي كنت اختار
لا تخشوا بعدها ان تدخلوا سقرا
فليس تدخل بعد الجنة النار

وبعد ملوك الطوائف والمرابطين أظل الاندلس ملك الموحدين ، وقد بلغت الى أقصى غايات المجد العلمي والرقي الفكري ، ففي عهدهم نبغ الفلاسفة العظام مثل ابناء زهر وابن طفيل وابن رشد ، وزادت النهضة الادبية اتساعا حتى اصبح الشعراء يعدون بالعشرات . ولقد جلس لهم المنصور الموحدي يوما وجاءوا يهنئونه بانتصاره في موقعة حربية ، فكانوا من كثرتهم انما يلقون البيت الاول من قصائدهم ، ويضعون الورقة التي كتبت فيها القصيدة أمامه ، فما انتهى عددهم حتى كانت الاوراق تحول بينه وبين الناس من كثرتها ، ولا تستطيع ان نعد جميع الشعراء الذين نبغوا في هذا العصر ، وانما نقتصر على ذكر ثلاثة افراد منهم نعتقد انهم يمثلون عصرهم أحسن تمثيل ، وهؤلاء هم الرصافي وابن مجبر وصفوان ابن ادريس .

فالرصافي هو محمد بن غالب البلنسي ، نسب الى رصافة بلنسية وكان شاعرا مجيدا نزيها عنيفا ، وله في عبد المؤمن بن علي القصيدة المشهورة التي أولها :

لوجئت نار الهدي من جانب الطور
قبست ماشئت من علم ومن نور

وفيها يصف جبل طارق — وكان عبد المؤمن يسميه جبل الفتح — وصفا بليغا ويذكر مجمع البحرين واسطول الموحدين الجربي ويمدح المهدي ابن تومرت وعبد المؤمن مشبها لهما بموسى ويوشع عليهما السلام ، وهاك قوله في وصف الجبل :

لله ما جبل الفتحين من جبل
معظم القدر في الاجيال مذكور
من شامخ الانف في سحنائه طلس
له من الغيم جيب غير مزرور
معبرا بذراه عن ذرى ملك
مستمطر الكف والاكناف ممطور
تمسي النجوم على اكليل مفرقه
في الجو حائمة مثل الدنانير
وربما مسحته من ذوائبها
بكل فضل على فوديه مجرور
وأدرد من ثناياه بما أخذت
منه مفاحم أعواد الدهارير
محنك حلب الايام أشطرها
وساقها سوق حادي العير للعير

وان مجبر هو ابو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن ابن مجبر الفهري من أهل بليش ، قرية قرب مالقة ، كان من أشعر أهل زمانه وكان مختصا بالمنصور الموحدي ملازما له ، وكان المنصور يعظمه ويقدمه على غيره من شعراء وقته وله فيه أمداح كثيرة ، وهو القائل في وصف المقصورة " الاوتوماتيكية " التي أنشأها المنصور بجامعة بمدينة مراكش بعد ما عجز الشعراء عن وصفها :

طورا تكون بمنحوته محيطة
فكأنها سور من الاسوار
وتكون حينا عنهم مخبوءة
فكأنها سر من الاسرار
وكأنها عملت مقادير الورى
فتصرفت لهم على مقدار
فاذا احست بالامير يزورها
في قومه قامت الى الزوار
يبدو فتبدو ، ثم تخفى بعده
كتكون الهالات للاقمار

وأما صفوان بن ادريس فهو ابو بحر التجيبي من أهل مرسيه ، كان شاعرا وكاتبا وله كتاب " زاد المسافر " هو أحد المجموعات التي تؤلف خزانة الادب الاندلسي ، ومن شعره الهمزية المشهورة بين أدباء المغرب وأولها :

جاد الربى من بانة الجرعاء
نوآن من دمعي وغيم سماء
فالدمع يقضي عندها حق الهوى
والغيم حق البانة الغناء
خلت الصدور من القلوب كما خلت
تلك المقاصر من مها وظباء
ولقد أقول لصاحبي وانما
ذخر الصديق لآكد الاشياء
يا صاحبي ولا أقل – اذا انا
ناديت – من أن تصغيا لندائي
عوجا نجار الغيث في سقي الحمى
حتى يرى كيف انسكاب الماء
ونسن في سقي المنازل سنة
نمضي بها حكما على الظرفاء

ويأتي بعد هذا العهد عهد غرناطة وملوك بني الاحمر ، وحسبنا ان نذكر غرناطة فنذكر الشعر والشعراء والحياة الادبية الراقية التي قضتها هذه المدينة في عهد ملوكها الرافلين في حلل النعيم في قصور الحمراء الزاهية وبين ظلال جنات العريف الوارفة ، ولا حاجة بنا الى ذكر شعراء هذا العهد ، فان واحدا منهم يكفي للتنويه بنهضة الشعر فيه وهو لسان الدين بن الخطيب الذي ملأ الدنيا شعرا وأدبا ، وعفى ذكره على السابقين واللاحقين من ادباء الاندلس ، فما من مجال الا وله فيه ذيل سحب ، وما من موضوع الا وقد تناوله بذراع رجب ، وبقدر ماله في الشعر من الايات البينات ، فان له في النثر الفني والكتابة العلمية والتاريخية الاثار الخالدات ، وبالجملة فقد كان معجزة قطره ومفخرة عصره ، ولم يبالغ من قال فيه انه شاعرالدنيا واديب الاندلس ، اذ كان يقصد دنيا العروبة في هذا العهد. ولا نستطيع ان نقدم نماذج من شعره تمثل نفسيته وطابعه الادبي ، فان شعره كثير ومناحيه الفنية متعددة فلنقتصر على قطعة او قطعتين منه " وبين البحر اجتزاء " بالوشل

قال يتشوق

سقى الله نجدا ما اتخمت بذكرها
على كبدي الا وجدت لها بردا
وانس قلبي فهو للعهد حافظ
وقل على الايام من يحفظ العهدا
صبور وان لم يبق لي الا ذبالة
اذا استقبلت مسرى الصبا اشتعلت وقدا
ولقد كنت جلدا قبل ان يذهب النوى
ذماني وأن يستأصل العظم والجلدا

وقال مخاطبا السلطان أبا عنان المريني ، وكان قد وفد عليه من قبل سلطانه الغني بالله في جملة من أعيان مملكة غرناطة مستنجدا به ، فحين مثل بين يديه أنشده وهو قائم :

خليفة الله ساعد القدر
علاك ما لاح في الدجا قمر
ودافعت عنك كف قدرته
ماليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى
لنا وفي المحل كفك المطر

والناس طرا بأرض إندلس
لولاك ما أوطنوا ولا عمروا ،

وجملة الامر انه أوطن
في غير علياك ماله وطر
وقد أهمتهم نفوسهم
فوجهوني اليك وانتظروا

فاهتز السلطان ابو عنان لهذه الابيات وأذن له في الجلوس وقال له ما ترجع اليهم الابجميع طلباتهم ، قال القاضي ابو القاسم الشريف شارح مقصورة حازم وهو من مشائخ لسان الدين وكان معه في هذه الوفادة : " ما سمعنا بسفير قضى سفارته قبل ان يسلم على السلطان الا هذا " ولا شك ان ذلك من براعة لسان الدين الرائعة وبلاغته الفائقة .

* * * *

وهذا الاستعراض على سرعته لا تم اذا لم نتعرض لنوابغ النساء الاندلسيات في الشعر ، وما كان لمشاركتهن من بليغ الاثر في الحياة الشعرية بالاندلس ، وقد بدا نبوغهن مبكرا في اول عهد الدولة الاموية ، لما قلنا من ان الشعر الاندلسي نشأ حضريا من أول يوم ، ونبوغ النساء في العلوم والفنون هو وليد الحضارة والحياة العقلية المترفة .

وقد كانت لبنى كاتبة الخليفة الحكم المستنصر من الاديبات الشاعرات المتفوقات ، وكانت تعاصرها حسانة التميمية بنت ابي الحسين الشاعر والشاعرة الغسانية ، وحفصة بنت حمدون ، واشتهرت بعد هؤلاء عائشة القرطبية التي لم يكن في زمنها من حرائر النساء من يعدلها علما وفهما وأدبا وشعرا وفصاحة ، تمدح الملوك وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة ،وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف وماتت عذراء سنة ٤٠٠ ( )

ثم اشتهرت في القرن الخامس مريم بنت ابي يعقوب الانصاري والشاعرة الاديبة التي كانت تعلم النساء الادب ، وأم العلاء بنت يوسف الحجارية ومولاة ابي المطرف بن غلبون العروضية ، وولادة بنت المستكفي الشهيرة ، ومهجة القرطبية ، ونزهون الغرناطية ، وحمدونة بنت زياد المؤدب والعبادية والدة المعتمد واعتماد محظيته وبثينة بنته وام الكرام بنت المعتصم بن صمادح وغاية المنى جاريته ، ثم اشتهرت في اوائل القرن السادس الاديبة الشلبية ، وأسماء العامرية وحفصة الركونية وغيرهن ممن استوعب المقري ذكرهن وأتى على كثير من أشعارهن ولطائفهن .

ونحن نكتفي بذكر اثنتين من هذا العدد الكثير وهما : ولادة وحمدونة :

فأما ولادة فهي بنت الخليفة المستكفي بالله ، كانت واحدة زمانها في الادب والشعر ، حسنة المحاضرة لطيفة المعاشرة مع الصيانة والعفاف ، وكان ابن زيدون يتعشقها وله فيها القصائد الطنانة والمقطعات البديعة ، وكانت اولا تطارحه شعرا بشعر وتبادله حبا بحب ، ثم قلبت له ظهر المجن وصارت تهجوه ، وكان لها مجلس يغشاه ادباء قرطبة وظرفاؤها فيمرفيه من النادر وانشاد الشعر كثير .

ومن بديع شعرها ما كتبت به الى ابن زيدون :-

ترقب اذا جن الظلام زيارتي
فاني رأيت الليل أكتم للسر
ولي منك مالو كان بالشمس لم تلح
وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وأما حمدونة بنت زياد المؤدب التي يقال لها خنساء المغرب لقوة شعرها وسمو

ابداعها ، ولها المقطوعتان المشهورتان بالشرق والمغرب واللتان ما زال أهل البلاغة يجعلونها مثالا أعلى للنسج على منواله والحذو حذوه وهما :- هذه :

ولما ابى الواشون الا فراقنا
وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة
وقل حماتي عند ذاك وانصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي
ومن نفسي بالسيف والسيل
والنار

وهذه :

وقانا لفحة الرمضاء واد
سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحة فحنا علينا
حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا
ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا
فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى
فتلمس جانب العقد النظيم

ولعلنا وقد انتهينا من هذا الاستعراض ، قد ظهرنا منه بالرغم من قصره على تلك الظاهرة ، التي أسلفنا الكلام عليها ، وهي أن هذا الشعر الاندلسي حضري مترف لا جاهلية له ولا بداوة وانه منذ نشأ كان كذلك ، لم يحمل من معاني الشعر الجاهلي وألفاظه ما حمله غيره من الشعر العربي في الاقطار الاخرى غير الاندلس ، ولم يمثل غير نفوس أصحابه ومجتمعهم ومحيطهم .. على انه لما ضاق به مجال التعبير ، واحتاج الى التحرر من القيود اللفظية لم يخرج من مواضعات القوم الا بمقدار ما تسمح به طبيعة اللغة العربية المحافظة على ارث الاجداد ، فاخترع هذا التوشيح الذي هو فن أندلسي محض ، أدخل على الشعر العربي تحسينا في الصناعة كما جعله ألين مراسا وأسلس قيادا ، مما كان عليه قبل ، إذ كانت القافية تتحكم في الشاعر فتركبه المراكب الصعبة للبلوغ الى مقصده ، ويضطر بذلك الى استعمال الالفاظ المألوفة وغيرها دع عنك سآمة النفس ونبو الطبع عن سماع نغمة واحدة لا تبديل فيها ولا تغيير منذ بدء القصيدة الى نهايتها .

وربما تكون طويلة جدا ، ولاكذلك هذا النظام البديع الذي يقوم عليه التوشيح من الاسماط والاغصان فانه اوقع في النفس وأخف على السمع . وبه ظهرت براعة أهل الاندلس فانهم جددوا وحافظوا في آن واحد ، جددوا في اسلوب الشعر ونظمه ، وحافظوا على اوزان العروض والقافية فلم يقعوا فيما وقع فيه بعض ادباء العصر من الدعوة الى نبذ القافية جانبا والتحلل من الاوزان والبحور الشعرية المعروفة ، فلما تناقض عملهم مع طريقة الشعر المعروفة دعوا ذلك بالشعر المنثور ..؟

وأشار ابن خلدون الى قريب مما ذكرناه ، من ان اختراع التوشيح كان نتيجة لكثرة الشعر وحب التفنن فيه فقال :- " أما أهل الاندلس فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ينظمونه اسماطا اسماطا وأغصانا أغصانا ، يكثرون منها ومن اعاريضها المختلفة ، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا . ويلتزمون عدد قوافي تلك الاغصان وأوزانها متتاليا فيما بعد الى آخر القطعة

وكان المخترع لهذا الفن هو مقدم بن معافى شاعر الامير عبد الله بن محمد المرواني ، وأخذه عنه ابن عبد ربه صاحب كتاب " العقد " ، ولكن الذي أحكم صناعته ونهج طريقته هو عبادة

القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية ..
قال ابو بكر بن زهر " كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز

فيما اتفق له من قوله :

بدر تم شمس ضحى
غصن نقى مسك شم
ما اتم ما اوضحا
ما اورقا ما انم
لا جرم من لمحا
قد عشقا قد حرم

وكان بعد عبادة ، ابن رافع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، ثم الاعمى التطيلي ويحيى بن بقي وابو بكر ابن باجة الفيلسوف الموسيقار المشهور ، ثم محمد بن ابي الفضل ابن شرف وأبو بكر بن زهر الحكيم المشهور وسهل بن مالك وغيرهم كثير ، واشتهر على الخصوص بين ادباء المغرب موشح ابن سهل الاسرائيلي شاعر اشبيلية وأوله :

هل درى ظبي الحمى ان قد حمى
قلب صب حله عن مكنس
فهو في حر وخفق مثلما
لعبت ريح الصبا بالقبس

وقد نسج على منواله لسان الدين ابن الخطيب فقال :

جادك الغيث اذا الغيث همى
يازمان الوصل بالاندلس
لم يكن وصلك الا حلما
في الكرى او خلسة المختلس

وكان ابن الخطيب من المبرزين في صنعة التوشيح شأنه في كل فن من فنون الادب .

ولا يمتاز الشعر الاندلسي من ناحية الصناعة اللفظية فحسب ، بل ان له مميزات من الناحية الموضوعية لا تكاد تخفى على احد ممن تعمق في دراسة الادب العربي على العموم وقارن بين الشعر الاندلسي وغيره من شعر الاقطار العربية الاخرى .. وقد تقدمت الاشارة الى هذه البراعة في الوصف التي تميز بها الاندلسيون خاصة في وصف مظاهر الطبيعة وآثارها البديعة من الرياض والازهار والرياح والامطار والمياه والانهار وما الى ذلك حتى كان شاعرهم في هذا الباب وهو ابو اسحق بن خفاجة فذا في شعراء العربية كلهم لم ينافسه احد منهم في استحقاق لقب شاعر الطبيعة ..ومع ذلك فان موضوعا آخر لم نر من نبه عليه ، ولم ينتبه اليه الشعراء العرب الا في هذا العصر الحديث حين وجدت بواعثه واسبابه ، فصار عندهم من الموضوعات الشعرية الرئيسية ، ألا وهو الشعر الوطني ، فالاندلسيون بماكانوا فيه من عراك دائم مع القوات الاسبانية التي تنتقص بلادهم من اطرافها يوما فيوما وتحاول ان ترمي بهم خارج حدود الجزيرة الايبيرية في كل وقت وحين ، ولم يزالوا كلما خرجوا من بلدة او قرية وفقدوا السلطة على مدينة او ناحية ، يبكون سالف مجدهم وعزهم ويحنون الى معاهد أنسهم ولهوهم ويتفجعون لما نزل بها من الذل والهوان ويستثيرون الهمم لانقاذها واسترجاعها من يد الكفر والطغيان .. وهكذا تكون موضوع جديد في الشعر العربي وهو الشعر الوطني الذي يضرب على وتر الوطنية ويستغل الحماسة الدينية للجهاد والقتال من اجل تحرير البلاد .

وهذه الوطنية لم تكن عند الاندلسيين شعورا عابرا ولا فكرة عارضة ، وانما هي عقيدة ثابتة واحساس متأصل في نفوسهم ، يدلك على ذلك كثير من أقوالهم حتى في غير الشعر الذي نحن بصدده .. فمثلا نجد الفتح بن خاقان عند ترجمته لابن حزم العالم المشهور يفتخر بأنه لم يرحل الى المشرق

وأن نبوغه فاق من رحل اليه ، ونجد اسمعيل بن حبيب في مقدمة كتابه " البديع في وصف الربيع " يباهي بأنه لم يورد فيه شعرا الا لأهل بلده الاندلس ، ويزري بأشعار المشارقة التي ابتذلت فلم تعد النفوس تميل الى سماعها ، ثم يشير الى سبق الاندلسيين للمشارقة في أحسن المعاني مجتلى ، وأطيبها مجتنى ، وهو الباب الذي تضمنه هذا الكتاب (يعني وصف الربيع) فلهم فيه من الاختراع الفائق والابتداع الرائق وحسن التمثيل والتشبيه ، مالا يقوم أولئك مقامهم فيه " ونرجع الى ماكنا بسبيله من الشعر الوطني الاندلسي فنورد منه بعض الامثلة ، يقول ابو المطرف بن عميرة في قطعة بليغة :

زدنا على النائين عن أوطانهم
وان اشتركنا في الصبابة والجوى
انا وجدناهم قد استقوالها
من بعدماشطت بهم عنهاالنوى
ويصدنا عن ذاك في اوطاننا
مع حبها الشرك الذي فيها ثوى
حسناء طاعتها استقامت بعدنا
لعدونا ، أفيستقيم لها الهوى .. ؟

ويقول ابو عبد الله الفازاري في قطعة اخرى :

الروم تضرب في البلاد وتغنم
والجور يأخذ مابقي والمغرم
والمال يورد كله قشتالة
والجند يسقط والرعية تسلم
وذوو التعين ليس فيهم واحد
الا معين في الفساد مسلم
أسفي على تلك البلاد وأهلها
الله يلطف بالجميع ويرحم

فهاتان القطعتان من أشجى الشعر الوطني وأبلغه ، ولاتقصران عما ينظم منه الان في البلادالعربية التي يتلاعب بها الاستعمار

* * * *

ودون هذا وذاك فان هناك فنونا أخرى من النظم برع فيها الاندلسيون وتفوقوا على غيرهم وان كانت لا تعد من الشعر في حقيقة الامر ، وهذه مثل الانظام العلمية التي تضم أشتات العلوم وقواعدها وتتضمن ابوابها وفوائدها ، ومن اول الموضوعات التي ضبطها بالنظم وقيدها بالوزن التاريخ ، فلابن عبد ربه أرجوزة ذكر فيها غزوات عبد الرحمن الناصر ، بل قيل ان ليحيى الغزال الذي عاش قبل ذلك بكثيرتاريخا للاندلس منظوما .

وكذا لابن الخطيب تاريخ منظوم وهو المعروف " برقم الحلل في تاريخ الدول " ، وفي غير التاريخ نرى منظومة لابن عبد ربه ايضا في علم العروض وهي في غاية السلاسة ، كما نرى لابن مالك الجياني " ألفية " النحو المشهورة ولابن عاصم الغرناطي " تحفة الحكام في علم القضاء والاحكام " وغير هذه المنظومات كثير .

على ان البراعة الحقيقية التي امتاز بها الاندلسيون في هذا الصدد هي الانظام العلمية الملغوزة ، وتختلف طرق الالغاز فيها عندهم ، فبعضها لا تكاد تشعر بأنه نظم علمي ، وانماتقول انه قصيدة شعرية فريدة في حين انه يتضمن اشارات ورموزا الى قواعد علمية معروفة ، وبعضها يكون فيه الرمز واضحا لاخفاء معه وانما فائدته أنه يتضمن المعاني الكثيرة في الالفاظ القليلة بحيث تشتمل القصيدة ذات الابيات المعدودة على قواعد علم كامل بجميع مسائله وأغراضه ، فالاول كما في قصيدة (غرامي صحيح) لابن فرج الاشبيلي التي ضمنها اصول علم الحديث ولم يصرح بشيء من غرضنه

فجاءت كأنها قصيدة غزلية بحيث لوعرضت على عربي خالص لما فهم منها الا ما يفهم من قصائد الشوق والوجد وهذا اولها :

غرامي صحيح والرجا فيك معضل
ودمعي ووجدي مرسل ومسلسل

والثاني كما في قصيدة الشاطبي في علم القراءات ، وهي مشهورة بين علماء هذا الفن ، وتعد من أمهات الكتب فيه ، وقد بناها على اشارات الحروف الابجدية ، وبذلك توصل الى اختصار هذا العلم الواسع وتضمينه في نظم مهما كثر فانه قليل بالنسبة الى سعة موضوعه

.. وقد ظهر بهذا العرض السريع وهذه الالمامة العجلى ان الشعر الاندلسي لم يتأثر بشيء خارجي عنه ، حتى الاديب المشرقي كان تأثره به في دائرة عامة ، وأما السمات الخاصة به فانما كانت من وحي البيئة والمحيط وهذه العناصر الجديدة التي وجدت فيه مع الايام سواء في اللفظ اوفي المعنى انما كانت ذاتية وتلقائية فلا صحة لما يقال من ان الادب الاندلسي تأثر بالادب الاسباني وأخذ عنه ، كما اثر هو عن حق في هذا الادب وكما أخذ هذا الادبه من غير شك عنه ، فليت شعري اين هو هذا الاثر ؟ وما هذا الذي أخذه الادباء الاندلسيون عن الادباء الاسبان ؟ واي فن جديد هذا الذي اضافه الادب الاندلسي الى فنون الادب العربي باستثناء الموضوع الذي لمحنا اليه وهو الشعر الوطني الذي كان وليد الظروف السياسية الداخلية للبلاد ، وما باله لم يطل على دنيا القصص والتمثيل ، ان كان حقا تأثر بالادب الاسباني ، وليس في هذا الاخير ما يؤخذ أفضل من هذين الفنين ، لو كانا موجودين فيه اذ ذاك ؟

أما القول بأن مرثية ابن عبدون لملوك بني الافطس هي من قبيل الشعر القصصي ، وانها تدل على اقتباس هذا الفن من الاسبان فانما هو قول من يلقي الكلام على عواهنه ولا يعني بتحقيق ما يقول ، ولهذه المناسبة نشير قبل ان نختم هذه الكلمة ، الى ان هناك قصيدة اخرى شبيهة بمرثية ابن عبدون ، ولكن قل من يتنبه لها مع انها في غرض الرثاء مثلها وتضمنت من عبر الدهر مايجعلها

مأساة تاريخية كقصيدة ابن عبدون وهذه هي قصيدة الاعمى التطيلي في رثاء احد فتيان اشبيلية الاجواد وكان يتعهده ويحسن اليه ، فأصبح قتيلا ذات يوم .. وأولها :

خذا حدثاني عن فل وفلان
لعلي أرى باق على الحدثان

هوامش :

(٢) – يلقب عبد الرحمن الداخل بصقر قريش .

(٣) – وهو قوله :

ولولا الشعر بالعلماء يزري
لكنت اليوم أشعر من لبيد

(٤) – انظر الرافعي ، ص ٢٨٥ تاريخ اداب العرب ج ٣ .

(٥) – ياقوت في معجم البلدان .

(٦) – المقري في نفح الطيب ص٢١٨

(٧) – الرافعي في تاريخ آداب العرب ج ٣ ص ٢٧٥

(٨) – دوزي في كتابه الاسلام الاسباني .

(٩) – ابن خلكان

(١٠) – الشقندي في رسالة المفاضلة بين الاندلس والمغرب .

(١١) – ابن بسام الذخيرة ج ل ص ٣٢٦

(١٢) – الشقندي .

(١٣) – نفح الطيب ج٢ ص ٥٨٣

(١٤) – انظر النفح ج٢ ص ٤٨